الضحية

«في ذات يوم منذ مئات السنينن، ما كان أحد الملوك ويدعى «كاندرافولاكا» يحكم مدينة إسمها «سيتراكوتا» –أو الرأس المتألقة– وكانت منيعة الحصون، فأرهب ذلك أعداءها، وجعلهم لايجرؤون على محاولة إجتياز حدودها. وكان ذلك الملك مرهوب الجانب –مما جعل رعاياه يشبهونه بالحظيرة التي تعجز أقوي الفيلة وأعتاها عن إقتحامها! – كريم الصفات، مما أكسبه محبة شعبه إلى درجة العبادة، قوي البنية، كريم النفس، كامل الصفات.. إلا أنه رغم أن الطبيعة حبته بغاية ما تشتهيه الأنفس، كان مشغول البال على الدوام بفكرة واحدة لا تنفك تضنيه وتقض مضجعه!.. ذلك أنه بالرغم مما كانت تحفل به مدينته من أجمل الفتيات وأعرقهن حسباً، لم يوفق في العثور على عروسى تناسبه.

وذات يوم شعر الملك بحاجة إلى الترويج عن ذهنه المكدود، فارتدي عباءة زرقاء موشاة بالذهب، وإمتطى صهوة جواد مطهم، وخرج تصحبه كوكبة من فرسانه إلى الغابة الشاسعة ليمارس هوايته المفضلة وهي الصيد!.. ولم يكن قد قطع مسافة طويلة في الغابة حين صادف قطيعاً من الخنازير البرية، فأمطرة وابلًا من سهامه وأسقط منه عدداً كبيراً. ثم رفع بصره نحو السماء فأبصر الشمس متدثرة بالفيوم، تكافح لتشق لنفسها ثغرة تنفذ من ثناياها!.

وقد أمده بمنظر الطبيعة الساحرة بقوة تضارع قوة اإله «آرجونا»، فإستدار يطارد قطيعاً آخر من الخراتيت يشبه في ضخامته كتل الجبال التي قص «أندرا» أجنحتها، وما لبث أن ألهبه حماس الصيد، فأحس برغبة جامحة في أن يتوغل في قلب الغابة بمفرده، ومن ثم وخز بمهمازه بطن

جواده الذي أهاجه وخز المهماز ولذعات السوط، فإنطلق راكضاً –بسرعة تفوق سرعة الصوت– غير عابىء بما يعترض طريقه من عقبات، حتى قطع في لحظات عشرة فراسخ في جوف الغابة!.

وأخيراً توقف الجواد، فترجل الملك وأمسك بلجامه وراح بهيم به –متمهلًا– في الأدغال على غير هدي. وفجأة لمح أمامه بحيرة كبيرة، يحيط بها عدد من أشجار اللوتس، تتمايل أغصانها مع النسيم الطيل، فخيل إليه أنها تشير إليه بأصابعها قائلة: «تعال، إقترب مني!»، فأطاع الملك نداءها، وإتجه إليها ثم خلع السرج عن الجواد، وأرقده على الأرض، ثم جاء من البحيرة ببعض الماء وسقاه ثم إغتسل بما تبقى منه. وأخيراً أصلح الملك من شأنه وتناول قدراً من الطعام وشرب من ماء البحيرة حتى إرتوى، ثم جاء ببعض الأعشاب الجافة، وإفترشها تحت ظل الأشجار. وراح يغمر المكان بنظراته متأملًا مناظر الطبيعة في شغف وإفتتان.

وفجأة لمح فتاة عذراء باهرة الجمال، تقف تحت شجرة ضخمة وقد إرتدت ثوباً متواضعاً أسود اللون مهلهلاً، ومقصت شعرها إلى الخلف في خصلة واحدة. ومع أن وجهها وثوبها كانا مجردين من أي أثر للزينة فان جمالها كان يبهر العين. وقد أدرك الملك من رقة حالها وتواضع ثيابها أنها إحدى الناسكات اللاتي إعتزلن العالم، هاربات من هوابات البشر!.

وكان الملك سريع التأثر بالجمال، وهدفا سهلاً لسهام إله الحب المصنوعة من أوراق الورد، فوقف يسائل نفسه قائلًا: «من عساها تكون؟ أتراها الحورية «سافيتيري» وقد جاءت لتستحم في البحيرة؟ أم هي الألهة البيضاء قد تصلحت بكل فتنتها لتسلطها على الإله «سيفا» كي تستعيد حبه، بعد أن سلاها وهجرها؟.. أم لعلها البدر المنير، وقد عاد بعد غيبة دامت نهاراً كاملًا؟ فلأقترب لأكتشف حقيقتها!».

أما الفتاة فما كادت تلمح الملك يتقدم نحوها حتى سقط من يدها إكليل الزهور الذي كانت تجدله، وتسمرت في مكانها، مبهورة الأنفاس، فاغرة الفم، تناجي نفسها قائلة: «رجل كهذا في الغابة؟ من تراه يكون؟ أهو إنس أم جن؟ ما أبدع طلعته وأروع محياه!.. إن بهاءه خليق بأن يبعث الغبطة والسرور في قلوب البشر جميعاً!»..

ومنعها حياؤها من أن ترفع بصرها إلى وجهه وكأنما كانت تخشى أن يغشى جماله عينيها، فوقفت والأفكار تضطرم بعنف في صدرها تخاله

نظرات خجلي، ثم لم تلبث أن أولته ظهرها، بيد أنها ما كادت تشرع في السير حتى تخاذلت ساقاها وتعثرت خطاها، وكأنما صارت قدماها كتلتين من خشب.

وسرعان مالحق الملك بها، وخاطبها بأسلوب مهذب، يفيض أدباً، قائلاً لها: «لست أطلب منك أن تغدقي مظاهر الترحيب على ضيف وافد من بلاد بعيدة، فقد أغناني جمالك عن هذا. ولكن هل تحتم عليكم تقاليد النساك الهروب من الضيوف؟».. فلم تجد الفتاة بداً من الجلوس على الأرض، والترحيب به كما جرى العرف إزاء الضيف. ولم يلبث الملك أن سأل الفتاة التي عشقها من أول نظرة قائلاً: «أي عائلة سعيدة الطالع تلك التي تباركت بإنتسابك إليها؟.. وما اسمك؟ لابد أنه يشبه في وقعه على الآذان مذاق خمر الآلهة! ما الذي يدعوك إلى إساءة معاملة الزهور، إذ تسجنينها داخل أسوار الدير، بعيداً عن العالم؟».

فأجابته الفاتنة بقولها: «إنني «أنديفارابرابها».. أي بهاء اللوتس، وقد أذن لي أبي اليوم أن أجيء إلى البحيرة كي أغتسل. وأبي هو الناسك العظيم «كانفا»، وقد عشت –منذ أن ولدت في صومعة أبي التي تقع في مكان قريب من هنا!».. وعلى الفور إمتطى الملك صهوة جواده، ميمماً صوب صومعة الناسك «كانفاه» ليطلب منه يد ابنته، فلما دخل الصومعة وجد الناسك متألقاً وسط مريديه وحوارييه، كأنه القمر وهم النجوم يحيطون به من كل جانب، مصفين في أناة إلى مواعظه وتعاليمه!.

وبعد أن قدمت للملك واجبات الضيافة، ونال قسطاً من الراحة، خاطبه الناسك قائلاً: «إصغ إلى ما سأقوله لك يا بني، فهو لخيرك وفائدتك. إنك تعرف ما تقاسيه حيوانات الغابة من فزع من الموت. فأية لذة تجدها –إذن– في قتل هذه الحيوانات البائسة، التي لم تناصبك العداء؟.. لقد جعل السيف المقاتل كي يذود به عن نفسه –وعن غيره– حين يتعرضون للخطر. فأولى بك –يا بني– أن ترعى القانون، وتستخدم سلاحك في حماية رعاياك. تمتع بمباهج ملكك، وأعط بسخاء، ودع رعاياك يثنون على عدالتك، وأمسك عن هذا الشيد الإجرامي، الذي هو بمثابة مداعبة الموت، والذي يتساوى فيه الصاد والفريسة، لأنهما كلاهما سواء في الوحشية والعدوان!».

فنزلت نصائح الناسك وعظاته على أرض خصبة، وسرعان ما أتت ثمارها. وقد تقبلها الملك «كاندرافالوكا» بإمتنان وعرفان بالجميل، وأجاب قائلاً: «لقد تبت وإهتديت على يديك يا

سيدي المحترم. ولن أنسى معروفك هذا ما حييت. منذ اللحظة سأتوقف نهائياً من الصيد!»، فقال له الناسك: «نعم ما قررت يا بني. وإنني لأقدر شهامتك وفضيلتك، فإطلب مني ما تشاء!».

وقد أدرك الملك أن اللحظة مناسبة لطلب ما يشتهيه فؤاده، فبادر الناسك بقوله: «إذا تفضلت، هب لي ابنتك «بهاء اللوتس» لتكون زوجتي!»، فوافق الناسك على الفور.

وفي هذه اللحظة عادت ابنة الناسك –بعد أن إستمتعت بحمامها– فأنهى إليها أبوها نبأ خطبتها، ثم قام بنفسه بتزويجها من الملك المفتون. وقامت رفيقات العروس من الناسكات بتزينها، ثم تبعتها إلى حدود الدير والدموع تتقاطر من عيونهن!.

وإنطلق الملك على صهوة جواده محتضناً عروسه. وفيما هو يخترق أحراش الغابة لمح شجرة تنتصب على ضفاف بحيرة صافيه صفاء قلب الإنسان الفاضل، وشاهد تحت الشجرة كهفاً مظلماً غطت أوراق الأشجار مدخله، فلم يجد أفضل من هذا المكان ليقضي فيه ليلته، ومن ثم نزل عن جواده وجلس مع عروسه يستروحان النسيم العليل الذي يهب من البحيرة. وأخيراً أعدا فراشاً من الزهور داخل الكهف ثم ولجا مخدعهما آمنين!.

وفي تلك اللحظة رفع القمر عن وجهه نقاب الظلام وطبع قبلة على جبين الشرق الوضاح، وإرتمت طبقات السماء في أحضان أشعة القمر التي تسللت خلال أوراق الشجر، فألقت على الأرض ضوءاً متألقاً يشبه النسيج الموشي باللآليء، بينما كان الملك يقضي مع عروسه ليلة خالدة، حافلة بأسباب المتعة والهناء!.

ونهض الملك من فراشه عند الفجر، وما أن فرغ من صلاة الشروق، حتى خرج مع عروسه ليلحقا بكوكبة الفرسان التي سبقتهما

لتمهد لهما الطريق. وكانت الشمس قد صوبت شواظاً من سهامها النارية لتغمدها في صدر أمير الليل الذى أسرع يختفي بين شقوق الجبال.

بيد أنهما ماكادا يشرعان في السير، حتى هبط عليهما –على غرة– مارد من سلالة البرهميين، أسود البشرة، فاحم الشعر، يحيط رقبته بعقد مصنوع من الأمعاء، ويرتدى ثوباً منسوجاً من شعر الإنسان المجدول. وكان يلتهم قطعاً من اللحم البشري، ويحتسي جرعات من الدم في إناء مصنوع من جمجمة إنسان!.. ومالبث المارد ان اطلق قهقهات مدوية مجنونة، ثم تجشأ دماً من فمه الشبه بكهف رهيب، والمفروسة فيه أسنان من أنياب الفيل!.

وقال المارد للملك: «أيها اللئيم. إذا كنت لا تعلم من أنا، فأعلم أني المارد «باصق اللهب»، من سلالة البرهميين. وهذا الكهف مأواي، والآلهة ذاتها لاتجرؤ على إنتهاك حرمته!.. ناهيك وقد تخطيت أنت حدوده ودنسته بمخالطتك إحدى النساء فيه!.. لقد عدت في الوقت المناسب، كي أضبطك متلبساً بجرمك، ولكي أعاقبك على الجريمة التي إقترفتها. سأنتزع منك قلبك –أيها المجرم صريع العشق والهيام – وسأشرب من دمك!».

فلما سمع الملك تلك التهديدات طار لبه شعاعاً من قوط الجزع، إذ لاح له المارد ذا قوة جثمانية ليس بوسعه التغلب عليها، فخاطبه بمذلة وخشوع، قائلاً: «عفوك يا سيدي ورحماك. فقد إرتكبت هذه

الجريمة دون ما قصد. وأنا على إستعداد لأن أقدم لك الترضية اللازمة، فإذا ما صفحت عن ذنبي، وعاملتني معاملة الضيف الذي يلجأ إلى دارك، فسأكون طوع أمرك، أنفذ كل ما تأمر به.. فقط إرفع عني غضبك!».

فحدث المارد نفسه قائلاً: «وما المانع؟.. ليس ثمة ضرر من ذلك» ثم إستدار إلى الملك قائلًا بصوت مسموع: «لابأس.. أصفح عن ذنبك. بيد أنني أعلق هذا الصفح على شرط أن يحضر لي في ظرف سبعة أيام طفل في السابعة من عمره، ابن رجل برهمي، مقدماً نفسه طواعية ليفتديك بحياته، وأن يشده أبوه وأمه –بأيديهما– إلى الأرض، لتذبحه بسيفك ذبحاً!.. فإذا أخللت بهذا الشرط سأحطمك تحطيماً، أنت وكل ما ملكت يداك!».

وكان الملك في حالة مروعة من الفزع والخوف، فلم يجد بداً من الوعد بتنفيذ كل طلباته. وعلى الفور إختفى المارد عن ناظريه، فإمتطى الملك وعروسه صهوة جواديهما، وسارا الملحقا بالقافلة، وهما في حالة من البؤس والشقاء تجل عن الوصف، حتى إذا وصلا إلى مدينة «شييراكيتا» وجدا سكان المدينة قد علقوا الزنات وأقاموا المهرجانات إحتفالًا بزفافه الميمون، فإضطر إلى إخفاء همه في قلبه طول اليوم.

بيد أنه عقد في اليوم التالي –إجتماعاً سرياً مع مستشاريه، سرد عليهم فيه تفاصيل الكارثة التي ألمت به والتي غدت مصدر خطر على

حياته. وكان من أولئك المستشارين رجل عرف بالحكمة وسرعة البديهة، وقد قال للملك: «لا تستسلم لليأس باصاحب الجلالة. فإني أعدك

بأنني لن ألبث أن أعثر لك على الضحية المناسبة وسأحضرها لك بنفسي، فإن الأرض مليئة بالمعجزات!».

وما أن خرج المستشار الحكيم من الإجتماع، حتى أصدر أمراً بأن يصاغ تمثال من الذهب لطفل في السابعة من عمره، وبأن تزين أذنا التمثال بقرطين من الجواهر الثمينة، وأن يوضع التمثال فوق عربة تسير في جميع أرجاء المدينة، وباقي القرى والكفور، يتقدمها مناد يدق الطبول صائحاً: «يا أهل المدينة. هل من بينكم طفل في السابعة من عمره، مستعد أن يضحي بنفسه –نداء لوطنه ومليكه– بأن يلتهمه مارد شرير، بشرط أن يوافق أبواه على هذا التطوع، وأن يقبلا أن يشداه –بأيديهما– إلى الأرض أثناء ذبحه؟ إذا كان هنالك مثل هذا الطفل، فليتقدم إلى الملك، وسيهدي الملك التمثال الذهبي الموشي بالجواهر الكريمة ووثيقة ولاية مائة قرية إلى والديه، تعويضاً لهما عن خسارتهما!».

* * *

وكان يعيش في حي البرهميين، فتى في السابعة من عمره، يتمتع بنضوج عقلي مبكر، ووسامة تقاطيع.. وقد تصادف أن سمع الفتى نداء المنادي، فأوحت إليه العادات –التي رسخت فيه منذ أن كان يعيش حياته السابقة– بحمية وحماسة متدفقتين لأن يصنع الخير لإخوانه من

بني البشر، فاتجه إلى المنادي قائلاً: «إنني على إستعداد لأن أضحي بحياتي من أجل وطني. ولكن يجب أن أذهب أولًا إلى أبي لأنهي إليه ما استقر عليه عزمي!»، فكاد المنادي يطير فرحاً، وأذن له بالذهاب إلى منزله. وهناك وقف أمام والديه وقفة خشوع، وضم يديه إلى صدره يناشدهما قائلاً: إنني مشتاق لأن أضحي بجسدي الفاني لخير البشرية. لذلك جنت طامعاً في موافقتكما على هذا الأمر، وسيكون لكما عزاء في صورة مني منحوتة من الذهب الخالص والجواهر النفيسة، فضلًا عن ولاية مائة قرية. وبوسعكما إذا ما تخلصتما من الفقر –إلى غير رجعة– أن تنجبا الوفير من الأبناء عوضاً عني!».

بيد أن أبواه زجراه قائلين بعنف: «ماذا حدث لعقلك يابني؟ ماذا تقول؟.. هل مستك الريح أم لعله الشيطان قد سكن جسدك؟.. من من الآباء يقبل أن يذبح ابنه لقاء مبلغ من المال؟ وأي ابن هذا الذي يتطوع لأن يقتل؟»، لكن الفتى أجابهما قائلاً: كلا. لست مجنوناً أهذى، إنني أتوسل إليكما أن تصغيا إلى ما سأقوله لكما وأن تتمعنا في دلالته. إن هذا الجسد الفاني المحتقر منذ ولادته، والمليء بالدنس والأدران، لن يلبث أن يدب فيه الفساد. وقد أوحى ما قد نجنيه من فائدة –عن طريق هذا الجسد– إلى الحكماء أن يطلقوا عليه «سر الوجود»!.. وهل هناك فائدة أجل من المساهمة في خدمة البشرية؟.. بيد أن هذا لم ينسني أنه ما إستحق أن يولد من تجرد قلبه من حب أبويه ومراعاة إحساسهما. لذلك جئت إليكما ألتمس رضاءكما!».

وكانت كلمات الفتى تنضح عزماً وتصميماً حتى لقد اقنعت الوالدين بالإنصياع –على كره منهما– إلى مشيئة ابنهما، وهرع الفتي راكضاً –يتبعه أبواه– إلى المنادي، وتسلم منه التمثال الذهبي ووثيقة ولاية مائة قرية وسلمها جميعاً إلي أبيه، ثم وضع نفسه تحت تصرف رجال الحاشية الذين قادوه في موكب عظيم إلى قصر الملك. وقد إمتلأ الملك غبطة لعثوره على هذا الفتى الصادق العزم، وكأنما قد عثر على تميمة نادرة!.. وما لبث الملك أن أركب الفتى فيله الخاص، مكلل الرأس بالغار، ومعطر الثياب بأغلى ألوان العطور المتضوعة، ثم قاد الفيل بنفسه –يتبعه والد الفتى– إلى الغابة!.

وفي المكان الذي إلتقى فيه الملك بالمارد، رأى دائرة سحرية مرسومة على الأرض بجوار شجرة «الأزفاتا»، وهنالك قام كاهن القصر الملكي بالمراسم اللازمة ثم قدم الذبائح والقرابين إلى إله النار. فما كاد يفرغ من ذلك حتى ظهر المارد، قاذف اللهب، وهو يطلق ضحكة مدوية إرتج لها المكان إرتجاجاً، وراح يقرأ أوراداً من كتاب «الفيدا» وهو بينذاك يتمطى ويتجشأ –بلا توقف– ومقلتاه المحتقنتان تدوران في محجريهما، وقد ألقى شبحه الرهيب ظلًا قاتماً فوق الجميع!.

وعندئذ خر الملك على ركبتيه أمام المارد، قائلًا: «ها قد أنجزت وعدي، وأحضرت لك –حسب طلبك– ضحية آدمية، قبل أن ينقضي اليوم السابع. فأشفق على عبدك واقبل منه تضحيته بما يليق بها من

إحترام وتبجيل!». فنظر المارد إلى الفتي البرهمي، وهو يتلمظ ويلعق قطرة من الدم إنسابت من بين شفتيه!.

وأغمض الفتي القداس عينيه وراح يهتف في سريرته قائلاً: « أيها الإله كريشنا. إنني لا أطلب منك أن تجعل الجنة مثواي، حيث لا مكان لخدمة الآخرين، بل –على العكس– أن تبعثني من جديد –مرة تلو المرة– في جسد آدمي، أستطيع بواسطته أن أقدم خدمات جليلة للغيري من بني البشر!!».

وفيما هو يعبر عن نواياه الطيبة، إكتظت السماء بعربات روحانية يقودها حشد من الآلهة، لم يلبثوا أن أمطروه بوابل من الأزهار اليانعة. وعندئذ، اقتيد الفتى أمام المارد، وأمسكت أمه بيديه، بينما شد أبوه ساقيه، وشهر الملك سيفه ليذبحه!.. لكن الذهول والدهشة إستوليا فجاة على الجميع، إذ إنفجر الفتى ضاحكاً. فوقفوا جميعاً –بما فيهم المارد– فاغري الأفواه، معقودي الأذرع لا يحيرون حراكاً!».

وبعد أن فرغ الشيطان من سرد هذ القصة اللطيفة، التي تثقف العقول، قال للملك «تريفيكراماسينا»: «أخبرني –أيها الملك– لماذا ضحك الفتى في تلك اللحظة.. لحظة موته؟.. إن هذا السؤال يحيرني، فلا أجد له جواباً، فإذا كنت تعرف الحل الصحيح وترفض الإفصاح عنه، فإن رأسك سيتفتت إلى مائة قطعة!».

فأجاب الملك قائلاً: «إليك ما كان يدور بخلد الفتى حين ضحك: إن الشخص الضعيف يلجأ عادة –إذا ما نزلت به نازلة– إلى الإستنجاد

بأبيه وأمه. فإذا كان يتيماً فإنه يلتجيء إلى الملك مناشداً إياه الغوث والمعونة. فإذا لم يجد الملك فإنه يستنجد بمن تربطه به رابطة القربى. وفي حالة فتاناً هذا كان جميع هؤلاء يحيطون به، بيد أنهم كانوا يقفون منه موقفاً شاذاً!. فها هما والداه يشدانه إلى الأرض ممسكين بيديه وساقيه، طمعاً في ما نالاه من مال. وها هو ذا الملك يشهر سيفه ليذبحه أملًا في إنقاذ عنقه.. أما أقرب الناس إليه بعدهم، فقد كان المارد –سليل البرهمين– الذي شرع في إلتهامه.. لقد خامرته سخرية لاذعة حين أدرك مدى خديعة البشر في قيمة أجسادهم الفانية، حتى ليلجأون إلى كل السبل لحمايتها والإبقاء عليها، بينما كتب على الجميع –بما فيهم الآلهة براهما، وأندرا، وسيفا، وفيشنو –أن يلاقوا الموت إن آجلاً أو عاجلاً، برغم مباهاتهم بما توهموه من أنهم خالدون. فما نفذ الفني ببصيرته الحادة إلى هذه الحقيقة الرائعة حتى إنفجر ضاحكاً، ساخراً من الناس، مطمئناً إلى مصيره الهانيء السعيد!!».

وأمسك الملك عن الكلام، فإختفى الشيطان مرة أخرى عن كتفه، عائداً –بقوة السحر– إلى مأواه. ولم يتردد الملك، بل هرع مقتفياً أثره من جديد، لأن الرجل العظيم حقاً هو من أوتي قلباً ثابت الجنان، لا ييأس أمام ألاعيب الشيطان. ومن ثم أنزله من الشجرة ثم حمله فوق كتفه. وفي الطريق، خاطبه الشيطان قائلاً: «إنك رجل طيب القلب يا صاحب الجلالة.. بل إنك لرجل عظيم. ولذلك فإنني أسوق إليك هذه القصة العجيبة: